محمد عبده

الصبر على أداء الواجب درجة رفيعة من درجات الأخلاق الإنسانية .

وأرفع منها الصبر على أداء الواجب الذى لا يطلبه أحد منك ، ولا يحاسبك أحد عليه . وأرفع من هاتين الدرجتين صبر الإنسان على واجب يضار بأدائه ، وينتفع بتركه ، وقد يتركه فيغنم المحبة والثناء .

تلك درجة الأئمة من المصلحين .

وهى الدرجة التى استوى عليها مصلحنا الكبير : محمد عبده ، رضى الله عنه .

* * *

فما من واجب من الواجبات الكثيرة التى اضطلع بها فى الإصلاح الدينى أو إصلاح التعليم والأخلاق ، كان مطلوبًا منه أو مفروضا عليه .

وما من واجب من تلك الواجبات كان سهل المنال متيسر السبيل ، موفور الأعوان .

وما من واجب منها كانت فيه منفعة تعود على الرجل فى ماله ، أو سربه ، أو من يعول .

كلها كانت واجباته التى اختارها لنفسه ولم يفرضها أحد عليه .

وكلها كانت من الصعوبة والإعنات بحيث تتقاصر دونها الهمم وتحجم العقول .

وكلها كانت خلوا من الربح والشكر . ولو شاء الربح أو الشكر أو كليهما لاغترف من بحار ليس لها نفاد .

رضى الله عنه . لقد كان فى هذا الباب فردًا فى المشارق كلها ، ليس له نظير .

ومن المصلحين من يسومون نفوسهم الصبر على الواجب فى عالم الفكر والضمير ويعفونها من أعباء الواجبات التى تدخل فى عداد الشئون الفردية ، أو الشئون الإقليمية وما إليها .

لكن محمدًا عبده لم يكن ممن يعفون نفوسهم من واجب كبير أو صغير ، فى عالم الشئون الفردية ، أو فى عالم الفكر والضمير .

بل كان غوثًا لكل مستغيث يصل إليه ، وعونًا على كل خير يطبقه ، وملاذًا لكل من يلوذ به من عارفيه وغير عارفيه .

وما شأن مفتى الديار المصرية بحريق فى قرية ؟

وما شأن مفتى الديار المصرية بفقير حائر بين دور القضاء من أقصى الصعيد ؟

وما شأن مفتى الديار المصرية بأديب عربى مغترب من بلاده حيث لا يجود الأدب بالكفاف عل غريب أو قريب ؟

لكن محمدًا عبده له شأن بجميع هؤلاء ، وعند ظنهم جميعًا ، وفوق ما يظنون ويرتجون . فلا يعرف النوم وبين يديه حاجة ضعيف أو مظلوم ، ولا يبخل بوقته ولا بجاهه ولا بماله ولا بشيء فى مستطاعه لإحقاق حق وإدحاض باطل .

رضى الله عنه : ما سمعت قط بنظير له فى هذا الباب .

ونحن اليوم نتكلم عن الواجبات والمروءات واحتمال المسئوليات ، ونبدئ فيها ونعيد حتى أصبح اعتقادها على الأقل شيئا من المألوفات التى لا تقع من الأسماع موقع الاستغراب .

إلا أننا خلقاء أن نرجع إلى زمان محمد عبده لنعرف له فضله . وأن ننسى أيامنا هذه ولا نذكر إلا أيامه هو ، لكى نحسن الوزن والقياس .

ففى أيامه كانت كلمة « أنا مالى » شعار كل مصرى فى كل طبقة من طبقات الأمة .

وكان المرء يوشك أن يسأل عن الحسنة فينكرها ، مخافة أن يكون وراء السؤال حساب أو عقاب .

فى تلك الأيام كان الهرب من الواجب عنوان الحكمة والحصافة .

وفى تلك الأيام كان محمد عبده يتصدى للواجب الذى لا يسأله عنه أحد . ولا يحاسبه عليه أحد ، ولا يجهل ما وراء تصديه له من بلاء وعناء .

وأعجب ما انطبع عليه الرجل من هذه السجية النبيلة أنه كان يقبل التبعة التى لا يد له فيها ، ترفعًا منه عن موقف النصول والنكول ، فكان يشتد فى تخطئة العرابيين قبل إدبار دولتهم ، ثم أمسك عن نقدهم يوم أدبرت بهم الدولة وبطلت الفائدة من نقدهم وأصبحت فائدة النقد كلها للناقدين .

* * *

هذه الغيرة على الناس ، وهذا الوحيد الواصب فى سبيل الناس ، وهذا البر الدائم بكل إنسان من الناس ، لم يكن عن جهل ولا غفلة عن خبائث النفس البشرية وما ركب فى بعض الطبائع من اللؤم والخسة والكنود .

فقد ابتلى الرجل من هذا الجانب بالشىء الكثير : عوجل به فى باكر شبابه ولزمه طوال حياته إلى فراش موته .

ففى الشباب تعلم بعض ما أصابه من الغدر والكنود من رسالته التى يقول فيها : « تقطع الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء » .

إلى آخر ما فى الرسالة من شكاة وتبرم أليم .

أما فى عهد الكهولة ومقتبل الشأن فما رأينا رجلا اتفق الوشاة على الكيد له كما اتفقوا على الكيد لهذا الرجل العظيم .

إما لحسدهم إياه ، أو لجهلهم به ، أو لأنهم يؤجرون على الإساءة ويثابون ، وكان هو رحمه الله يعلم ذلك ويستيقنه صباح مساء ، فلا يكترث له إلا بمقدار ما يعوقه عن سبيله ، ولا يزيده إلا مضيًّا فيما مضى فيه .

فالغيرة على الناس إنما كان مصدرها ينبوع العظمة من ذلك الخلق الكريم ، ولم يكن مصدرها شيئا يتلقاه من الناس أو جزاء ينتظره منهم ، أو انخداعا فى حقيقة ما جبلوا عليه .

وتلك سجية المصلحين .

* * *

إننا نتكلم عن سوء الجزاء الذى يلقاه المصلحون من أهل زمانهم ، ويجب أن نذكر أن المصلحين هم فى الحقيقة أقل العظماء نصيبًا من حسن الجزاء فى الحياة وبعد الممات .

فإنهم ينجحون فى دعوتهم فيكون نجاحهم أدعى إلى نسيان فضلهم والإغضاء عن سابق جهودهم وضحاياهم ، وعن العراقيل التى قامت قبل ذلك فى طريقهم .

فأبناء الأجيال ينشئون وهم يحسبون أن الحالة التى نشئوا عليها إنما هى الشىء المألوف المعهود الذى لا يحتاج إلى عمل ولا مجهود .

فنحن الآن لا نسأل كما كانوا يسألون قبل خمسين سنة : هل تجوز إضاءة المساجد بالكهرباء أو لا تجوز .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يؤكل الطعام الذى يؤتى به من أوربة أو هو حرام على الآكلين .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يحل للرجل المسلم أن يرسل بابنه إلى مدرسة يتعلم فيها أن الأرض كرة وأن هذه الكرة تدور ؟

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل فى كبريت العلب مادة تنقض الوضوء ؟ وهل للحرير المصنوع حكم غير حكم الحرير المطبوع ؟ وهل وهل وهل إلى أشباه هذه الأسئلة التى كانت تتوالى على الإفتاء وتدل على الحالة العقلية التى كان الناس يواجهون بها مشاكل الحياة العصرية ، وهى حالة فى الحقيقة أخطر وأعضل من الأسئلة وموضوعاتها ، لأنها حالة أناس معزولين عن الحياة .

نحن لا نسأل هذه الأسئلة الآن .

ولكنهم كانوا يسألونها ويفكرون على نهجها قبل خمسين سنة ، وجهود محمد عبده فى فتاواه وأعماله ودروسه وقدوته هى الجهود الأولى التى بذلت بذل السخاء لتبديل تلك الحال وتعويد العقول أن تفكر على مثال غير ذلك المثال .

فإذا قيست عظمة محمد عبده غدًا فلا تكفى فى قياسها مؤلفاته وآثاره الكتابية ولا ينصفه المؤرخ حق إنصافه قبل استيفاء هذا الجانب من إصلاحه وجهاده .

ولهذا قلنا إن المصلحين قليلو الحظ من الإنصاف ، لأنك تعرف المؤلف بقراءة كتابه ، وتعرف القائد باسم المدائن التى فتحها والوقائع التى انتصر فيها ، وتعرف المخترع بذكر اختراعه ، والخطيب بحفظ كلمات من عيون خطبه أما المصلح فلا تعرفه إلا إذا عرفت جهاده ، ولا تعرف جهاده إلا إذا عرفت عصره فى جميع أجزائه ، وعرفت كيف كان وكيف تحول وكيف سرت روح التحول فيه ، ودون ذلك بحث وتنقيب ، وموازنة وتقليب ، وصبر يتقيه القارئ المطلع ويتقيه الباحث الأديب .

* * *

يسأل النقاد أحيانًا : أين مكان الأستاذ الإمام بين زميليه العظيمين اللذين يذكران معه كلما ذكر ، وهما جمال الدين وسعد زغلول .

والرأى عندنا أن صفة المصلح العظيم تضع الأستاذ الإمام فى موضعه الصحيح بين زميليه ، وأحدهما أستاذه والثانى إمام مريديه .

فهؤلاء الأعلام الثلاثة على اتفاقهم فى بعض الخصال – يختلفون فى أساس الاستعداد .

فجمال الدين هو الداعى العظيم .

وسعد زغلول هو الزعيم العظيم .

ومحمد عبده هو المصلح العظيم .

ولكل مهمة من هذه المهام الكبرى كفاءتها الخاصة التى لا تغنى فيها كفاءة غيرها .

فالدعوة صيحة وحركة وعمل سريع وتوهج وقدرة على التنبيه وقرع الأسماع ولفت الأنظار ، وهى لذلك أشبه بجمال الدين .

والزعامة قيادة وتوجيه وقدرة على تبادل الصلة بين الزعيم والشعب وعلى توجيه الشعب فى خدمة قضية أو إنشاء نظام من نظم الحكومة ، وهى لذلك أشبه بسعد زغلول .

والإصلاح ثقة وجلد ومزيج من روح الوعظ وروح التعليم ، وإعراض عن الشئون الدنيوية ، وإنكار للذات فى هذه الشئون ، وهو - أى الإصلاح - أشبه من أجل ذلك بالأستاذ الإمام .

وعلى توارد هذه الأسماء معًا يصعب عليك جدًّا أن تتخيل جمال الدين على رأس حكومة أو حركة شعبية كسعد زغلول .

وأن تتخيل محمدًا عبده جوّابا للآفاق مقتحمًا للأبواب تارة على الشاه وتارة على القيصر وتارة على الخاقان الأعظم ، وتارة فى العواصم من إيران إلى الهند ، ومن الهند إلى مصر ، ومن مصر إلى كل مكان يحمله إليه الركاب .

كذلك يصعب عليك جدًّا أن تتخيل سعدًا فى دار الإفتاء أو فى معهد التعليم صبورًا على الإقناع والإفهام معرضًا عن النزاع والخصام .

فبينهم من الاختلاف فى الاستعداد ما نرى من الفارق البعيد ، ولكنهم قد اتفقوا فى خدمة الشرق بجميع ما رزقوا من ملكات متقاربات أو متباعدات .

وأن الشرق بخير مادام قمينًا بإنجاب هؤلاء الأبناء ، عارفًا بما قدموا من مآثر وآلاء ، مقيمًا لهم على الوفاء وصدق الثناء ، وحسن الجزاء .